# من النص إلى الواقع:

# فقه السنن الإلهية وتطبيقاتها في الأحاديث النبوية

**رضوان الفحال**
أستاذ التربية الإسلامية بالسلك الثانوي التأهيلي
وباحث بسلك الدكتوراه جامعة ابن طفيل -القنيطرة

**ملخص:**

لم يترك الله عز وجل هذا الكون الفسيح ليعيش في فوضى، بل هناك قوانين ونواميس ثابتة تعرف ب " السنن الإلهية" تحكم حركة الانسان والمجتمعات، وإذا كان القرآن الكريم قد وضع الأطر الكلية والمشاهد الكبرى لهذه السنن، فإن السنة النبوية المطهرة جاءت لتكون شارحة ومفسرة لهذه القوانين من الناحية التطبيقية.

إن الأحاديث النبوية الشريفة لم تكن مجرد توجيهات تعبدية معزولة عن الواقع، بل كانت بمثابة مجهر نبوي يكشف للمسلمين كيف تعمل هذه السنن في تفاصيل حياتهم اليومية، وكيف يتفاعل النص الشرعي مع حركة الكون. من هنا يكتسي البحث في الأحاديث النبوية أهمية بالغة، لامتلاك وعي سنني، يمكِّن الإنسان من قراءة واقعه، وتوقع مآلات أفعاله، وبناء حضارته وفق قوانين لا تبيد ولا تتحول.

**الكلمات المفاتيح:** السنن الإلهية، الظلم، الفساد، الاختلاف المذموم.

**Abstract :**

God Almighty did not leave this vast universe to exist in chaos ; rather, there are governing laws and principles—known as "Divine Laws" (Sunan)—that regulate human affairs. While the Holy Quran established the broad frameworks and overarching scope of these laws, the Prophetic Sunnah stepped forward to explain and interpret them in practical terms. The noble Prophetic Hadiths were not merely directives for worship isolated from reality; instead, they served as a "Prophetic lens," revealing to Muslims how these Divine Laws operate within the details of their daily lives and how religious texts interact with the dynamics of the universe. Thus, studying Prophetic Hadiths takes on great importance, fostering a "Sunnah-based consciousness" that enables individuals to understand reality, anticipate the consequences of their actions, and build their civilization in accordance with immutable, unwavering laws.

**Keywords :** Divine laws, injustice, corruption, reprehensible discord.

ينضوي البحث ضمن حقل الدراسات الفكرية والحديثية، وتعد السنن الإلهية من أهم العلوم الفكرية والتشريعية، وخاصة في باب فقه السنة النبوية، وهذه السُّنن عبارة عن قوانين مطردة، والتي نقلت هذه القوانين من إطارها النظري إلى ممارسة واقعية واعية، في بناء الأمة وإدارة أزماتها،

إن البحث في السنن الإلهية أغلب الدراسات انصب اهتمامها في القرآن الكريم، حيث أغلب آيات كتاب الله تحدثت عن سنن التاريخ والمجتمعات، وما أصابها من عقوبة لما خرجت عن منهج الله. فكانت العقوبة من جنس العمل.

ولم يُعْن بالسنة النبوية في هذا المجال المتعلق بالسنن الإلهية إلا لماما، لذلك اخترت هذا البحث ليسلط الضوء على بعض الأحاديث التي نتلمَّس فيها السنن الإلهية، وهو مجال واسع لاستنباط السنن من خلال السنة النبوية.

فإلى أي حد يمكن أن تكون السنة النبوية مجالا خصبا لاستنباط السنن الإلهية الناظمة للمجتمعات؟ وكيف يمكن توظيف هذه السنن لتقديم توجيهات عملية وفعالة تلبي احتياجات الإنسان المعاصر وتواكب تحديات العصر؟

وقد اعتمدت في هذا البحث على أربع مباحث، **فالمبحث الأول**: بينت معنى السنة لغة، **والمبحث الثاني**: معنى السنة اصطلاحا، وفصلت معناها عند المفسرين، والمحدثين والأصوليين، ومفهومها باعتبار التركيب عند المتأخرين من العلماء، **والمبحث الثالث**: رام حول أهمية وفائدة السنن الإلهية، **والمبحث الرابع**: الحاجة إلى العناية بفقه الحديث في باب السنن الإلهية ، وذكر نماذج من بعض الأحاديث.

المبحث الأول: تعريف السنة لغة

إن السنة النبوية إذا أطلقت يراد بها عدة معان في اللغة والاصطلاح، ولكن نأخذ من هذه المعاني تلك التي تخص بحثنا، ومن معانيها لغة، الطريقة والسيرة، وتأتي بمعنى الأُمَّة، وتأتي بمعنى المثال المتبع.

- ومن معانيها الطريقة والسيرة.

ما ورد في مختار الصحاح ( السنن: الطريقة يقال استقام فلان على سنن واحد ويقال امض على (سننك) (وسنتك ) أي على وجهك، وتنح عن سَنن الطريق وسُننه وسننه ثلاث لغات ، والسنة السيرة).1

" وإنما سميت بذلك لأنها تجري جريا، ومن ذلك قولهم امض على سَننك وسُننك أي: وجهك، وجاءت الريح سناسن إذا جاءت على وجه واحد وعلى طريقة واحدة.

قال الهذلي:

فلا تعجزن عن سنة أنت سرتها فأول راض سنة من يسيرها"2

يقال أيضا (من سن الماء يسنه إذا والى صبه، والسن الصب للماء، والعرب شبهت الطريقة المستقيمة بالماء المصبوب فإنه لتوالي أجزاء الماء فيه، على نهج واحد يكون كالشيء الواحد)[3]

قال الزبيدي : (السنة السيرة حسنة كانت أو قبيحة، قيل : فلان من أهل السنة معناه: من أهل الطريقة المستقيمة المحمودة)4، والسنة من الله إذا أطلقت في الشرع فإنما يراد بها ( حكمه ونهيه وأمره) مما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم ونهى عنه وندب إليه قولا وفعلا مما لم ينطق به الكتاب العزيز، ولهذا يقال في أدلة الشرع الكتاب والسنة: أي القرآن والسنة والحديث)5 (وكل من ابتدأ أمرا عمل به قوم من بعده، فهو الذي سنه)[6] ، وقد فرق الراغب الأصفهاني[7] بين سنة النبي، وسنة الله بقوله : ( سنة النبي صلى الله عليه وسلم طريقته التي كان يتحراها، وسنة الله عز وجل قد تقال لطريقة حكمته وطريقة طاعته نحو قوله تعالى ﴿ سُنَّةُ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلًا ﴾[8]

---

[1] مختار الصحاح ، المؤلف، زين الدين أبو عبد الله محمد بن ابي بكر عبد القادر الحنفي الرازي، تحقيق يوسف الشيخ محمد، الناشر، المكتبة العصرية –الدار النموذجية بيروت – صيدا، الطبعة الخامسة (1420 هـ/1999م). ص: 155

[2] معجم مقاييس اللغة (ص61/ج3) تحقيق عبد السلام هارون ط دار الفكر، ط، (1399هـ/1979م)

3 مفاتيح الغيب الرازي، التفسير الكبير، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الرازي خطيب الري،، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثالثة 1420 هـ (ج9/ 369)ط دار الفكر

[4] تاج العروس الزبيدي (ص: 231/ج35)، تحقيق: جماعة من المختصين، من إصدارات، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت ، أعوام النشر، (1385-1422 هـ) (1965-2001م) .

5المصدر نفسه.

6 المعجم الوسيط ج1/456، ط الشروق الدولية، الطبعة الرابعة 1425هـ/2004

[7] مفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ص: 429 تحقيق، صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق الطبعة الأولى 1412 هـ

[8] سورة الفتح آية 23

- ومن معاني السنة الأمَّةُ، قال الشاعر:

ما عين الناس من فَضْلٍ كفضلِكم وما رأوا مثلكم في سالفِ السُّنَنِ[1]

- وتأتي بمعنى المثال المتبع والإمام المؤتم به، (يقال منه : سن فينا فلان سنة حسنة، وسن سنة سيئة إذا عمل عملا اتُّبع عليه من خير أو شر)[2]

كل هذه المعاني في المعاجم اللغوية لا يحيد معنى السنة عن أربعة معاني الطريقة والسيرة، والمثال، والقدوة، والأمة.

المبحث الثاني: تعريف السنة في اصطلاح المفسرين والمحدثين والمعاصرين.

أ- تعريف السنة عند المفسرين والمحدثين والمعاصرين

السنة عموما هي الطريقة المسلوكة في الدين من غير افتراض ولا وجوب، " فالسنة ما واظب النبي - صلى الله عليه وسلم _ عليها مع الترك أحيانا فإن كانت المواظبة المذكورة على سبيل العبادة فسنن الهدى وإن كانت على سبيل العادة فسنن الزوائد"3

ب- *دلالة السنة في الخطاب القرآني*

القرآن الكريم ذكر لفظ السنة في مواطن عديدة من آياته، وفي سور مختلفة ومواطن كثيرة، ومجموع ما ذكر ( في ستة عشر موضعا، بالإفراد والجمع، والإضافة والتجريد عنها، فجاء الإفراد في ثلاثة عشرة موضعا، وجمعا في موضعين، وجاء مضافا إلى الله في تعسة مواضع، ومضافا إلى الرسل عليهم السلام في موضعين، ومضافا إلى الأولين في أربعة مواضع، وجاء في النكرة المجردة في موضع واحد)[4].

وهذا يدل على أن " آيات القرآن الكريم تفيض بالسنن التي أمر الله عباده أن يأخذوا بها في الحياة الدنيا، وهي في أكثر من موضع تحض المسلمين وتحثهم على الأخذ بسنن الله تعالى، فبينت لهم سنن الهلاك والاندثار بعد القوة

1 الكليات للكفوي (ص 495 )، قابله على نسخة خطية وأعده للطبع ووضع فهاريسه، د.عدنان درويش/ محمَّد المصري، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، (1419هـ/1998م) .

2 جامع الأحكام القرطبي، تحقيق أحمد البردوني، وإبراهيم أفطيش، ج 216/4، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية: 1384 هـ/1964م،

3 التوقيف على مهمات التعاريف- محمد عبد الرؤوف المناوي: فصل النون، (ص 415، دار الفكر المعاصر, دمشق، الطبعة الأولى، 1410هـ

4 فقه سنن النفس والمجتمع د ادريس العلمي (ص 14 ) (رسالة دكتوراة)، مرقون بمكتبة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول بوجدة.

والازدهار، وذكرتهم بنماذج من مصير الأمم الغابرة التي تنكبت تلك السنن فتم إهلاكها واستئصالها، كما بين لهم مصير الأمم التي ستأتي من بعد وهي خاضعة كذلك لتلك السنن المطردة"[1]

ذكر مظانّ ورود لفظ السنة في القرآن الكريم وتفسيرها

قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[2] قال الإمام الطبري : " (قد خلت من قبلكم سنن) مضت وسلفت مني فيمن كان قبلكم يا معشر أصحاب محمد وأهل الإيمان به من نحو قوم وعاد وثمود وقوم هود وقوم لوط وغيرهم من سلاَّف الأمم قبلكم (سنن) يعني مثُلاً، وسِيَراً سِرتُها وفيمن كذبوا به من أنبيائهم الذين أرسلوا إليهم .بإمْهالي أهل التكذيب بهم واستدراجي إياهم حتى بلغ الكتاب فيهم أجلي الذي أجلته لإدالة أنبيائهم وأهل الإيمان بهم عليهم، ثم أحللت بهم عقوبتي ونزلت بساحتهم نقمتي فتركتهم لمن بعدهم أمثالا وعبرا، فسيروا أيها الظانون أن إدالتي من أدلت أهل الشرك يوم أحد على محمد وأصحابه لغير استدراج مني لمن أشرك بي وكفر برسلي وخالف أمري في ديار الأمم الذين كانوا قبلكم ممن كان الذي مثل عليه هؤلاء المكذبون برسولي والجاحدون بوحدانيتي، فانظروا كيف كان أنبيائي وما الذي آل إليه عن خلافهم أمري، وإنكارهم وحدانيتي، فتعلموا عند ذلك أن إدالتي من أدلت من المشركين على نبيي محمد وأصحابه بأحد أنما هي استدراج وإمهال ليبلغ الكتاب أجله الذي أجلت لهم، ثم إما أن يؤول حالهم إلى مثل ما آل إليه حال الأمم الذين سلفوا قبلهم من تعجيل العقوبة عليهم، أو يُنيبوا إلى طاعتي ورسلي).[3]

ومن الآيات الكريمة التي وردت فيها لفظ سنة قوله تعالى : ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾[4].

[1] ( نشأة علم السنن الإلهية ومنهاج تدريسه)، الدكتور رشيد كهوس، بحث منشور، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية (مجلة نصف سنوية محكمة) تصدر عن كلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة قطر المجلد الحادي والثلاثين العدد الثاني (ط 1435/2013 ص 146)

[2] آل عمران آية (137)

3 جامع البيان عن تأويل آي القرآن الإمام الطبري (ج6 /70_71) تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى القاهرة (1422 هـ/ 2001م).

[4] سورة الحجر آية (13 – 15)

والآية وردت في سياق الحديث عن الصراع بين الحق والباطل وموقف الجاحدين من الدعوة والرسل والرسالة، وكان مراد هؤلاء المعاندين إخراج رسول الله من الأرض الذي كان يبسط فيها الدعوة، قال الإمام الزمخشري: "(سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ) طريقتهم التي سنها الله في هلاكهم حين كذبوا برسلهم، وبالذكر المنزل عليهم، وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم"[1]

ومن الآيات أيضا قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾[2]

والسنة في هذه الآية تعني الحكم النافذ والقدر المحتوم، والآية في معرض زواج الرسول من زينب بنت جحش رضي الله عنها، " وأن محمدا صلى الله ليه وسلم متبع سنة الأنبياء الذين سبقوه اتباعا لما فرض الله له كما فرض لهم أي: أباح"[3] " والنكاح سنة في النبيين على العموم...والعموم في النصرة أبلغ منه في النكاح والقتل"[4].

وقال سبحانه في سورة الإسراء : ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلاّ قَلِيلًا سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا﴾[5]وفي هذه الآية الكريمة : إخبار أن سنة الله في الأمم الخالية وعادته أنها إذا أخرجت نبيها من بين أظهرها نالها العذاب واستأصلها الهلاك فلم تلبث بعده إلا قليلا.

قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذَا جَاءَتْهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابَ قُبُلًا﴾[6]وسنة الأولين في هذه الآية " عادة الأولين في الاستئصال"[7]

يقول الدكتور القرضاوي : " والملاحظ أن هذه الآيات كلها مكية ومدنية أكدت ثبات السنة واطرادها ودوامها، كما أنها جميعا تتحدث عن السنن الاجتماعية، أعني: سنن الله في الاجتماع البشري: في النصر والهزيمة، والنجاة والهلاك ، والبقاء والزوال"[8].

واكتفيت بهذه الآيات الكريمات لأن معنى السنة في الآيات الأخرى لا تخرج عن هذا المعنى.

---

1 الكشاف الزمخشري (ج 401/3) تحقيق الشيخ احمد عادل عبد الموجود والشيخ علي محمد عوض مكتبة العبيكة . ط (1418ه/1998م)

[2] سورة الأحزاب آية (38).

3 التحرير والتنوير الطاهر ابن عاشور ج 21/ ص 41ط دار التونسية للنشر ط 1984

4 في رحاب التفسير عبد الحميد كشك (ج21/ 277 ) المكتبة المصرية الحديثة، تاريخ النشر: (1984).

[5] سورة الاسراء آية 76-77

[6] سورة الكهف آية 55

[7] جامع البيان عن تأويل آي القرآن الطبري (ج19/15) تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى القاهرة (1422 ه/ 2001م).

8 العلم والعقل في القرآن الكريم 282 مكتبة وهبة، ط، الأولى (1916 ه/1996م).

❖ الحاصل من معاني السنة في القرآن

اتضح من خلال شرح الآيات التي أتت فيها لفض السنة ثلاث معان:

1) الطريقة الحميدة.

2) سنة الله فيما أباح للرسل، وهذا ما أشارت إليه الآية في سورة الأحزاب.

3) العادة المألوفة والمثال المتبع في معاملة الأمم في حالة الطاعة وحالة المعصية، وهو المقصود في آية آل عمران وسائر الآيات الأخرى، وهذا المعنى هو ما يقصده العلماء من سنة الله في الأمم وما يقع لها من دمار وهلاك حالة عصيانهم وتمردهم، وحالة الطاعة حيث يتنعم الله سبحانه وتعالى على صلاح سريرتهم. وقد سرى هذا البحث على هذا المعنى الأخير للسنن.

أ. *ذكر مظانّ ورود لفظ السنة عند المحدثين:*

قال النبي صلى الله عليه وسلم في شأن النكاح من حديث أنس رضي الله عنه:(... فمن رغب عن سنتي فليس مني)[1]

وجاء في موطأ مالك " أن عمر بن الخطاب ذكر المجوس فقال ما أدري كيف أصنع في أمرهم فقال عبد الرحمن بن عوف قال: أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سنوا بهم سنة أهل الكتاب"[2]

حديث ابن عمرو بن العاص رضي الله عنه: ( فإذا دفنتموني فسُنوا علي التراب سنا)[3]

إن معنى السنة في هذه الأحاديث هي: الطريقة والمنهج الذي كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم. يقول ابن الأثير: " قد تكرر في الحديث لفض (السنة) وما تصرف منها، والأصل فيها الطريقة والسيرة، وإذا أطلقت في الشرع فإنما يراد بها ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم، ونهى عنه وندب إليه قولا وفعلا مما لم ينطق به الكتاب العزيز"[4].

---

[1] المنهاج في شرح مسلم بن الحجاج (ص869) (باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه)، تحقيق، الشيخ أبو صهيب الكرمي، ط، دار الأفكار الدولية ط ( 1421هـ/2000م).

2 موطأ الإمام مالك (ج278/1) باب جزية أهل الكتاب والمجوس (كتاب الزكاة) تحقيق فؤاد عبد الباقي، ط دار إحياء التراث العربي، ( 1402هـ/1985م).

3 المنهاج بشرح مسلم بن الحجاج النووي (كتاب الإيمان) (باب كون الإسلام يهدم ما قبله) ص 105

4 النهاية في غريب الحديث والأثر ص 449 ط دار ابن الجوزي، أشرف عليه وقدمه علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي الأثري، ط دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى / جمادى الأولى (1421 هـ)

والسنة في اصطلاح المحدثين: اتباع ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وواظب عليه سواء في العبادات أو العادات أو صفة خِلقِية أو خُلقية، بالإضافة إلى السنن التقريرية والفعلية والعملية التي كان يشير إليها الرسول صلى الله عليه وسلم، " والفعل الذي داوم عليه النبي صلى الله عليه وسلم سمي سنة بمعنى: أنه عليه الصلاة والسلام أحسن رعايته وإدامته"[1]. قال المفسر أبو بكر الجزائري: السيرة والطريقة هي التي يكون عليها الفرد أو الجماعة، وسنن الله تعالى في خلقه قانون الماضي في الخلق[2].

وإلى جانب المحدثين نجد حتى الأصوليين والفقهاء يستعملون معنى السنة بمعان تختلف عن المحدثين، فالأصوليون يعرفونها بما يتماشى مع التشريع الإسلامي ويقتصرون في تعريفها كل ما جاء من أقواله وأفعاله وتقريراته دون الصفة الخِلقية والخُلقية إذ إن هذا فيه أمر الاتباع بينما في باب التشريع يتعلق بالأوامر والنواهي والكراهة والتحريم، أي كل ما يصدر من تقريراته وأفعاله وأقواله يحمل على معنى التعلق بالفعل من حيث تعلق السنة بالأحكام الشرعية.

يقول الدكتور مصطفى السباعي: " ومرد هذا الاختلاف في الاصطلاح إلى اختلافهم في الأغراض التي يعني بها كل فئة من أهل العلم، فعلماء الحديث إنما بحثوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الإمام الهادي الذي أخبر الله عنه أنه أسوة وقدوة، فنقلوا كل ما يتصل به من سيرة وخلق وشمائل وأخبار وأقوال وأفعال، سواء تثبت حكما شرعيا أم لا، وعلماء الأصول ...عنوا بأقواله وأفعاله وتقريراته التي تثبت الأحكام وتقررها، وعلماء الفقه ...يبحثون عن حكم الشرع على أفعال العباد وجوبا أو حرمة أو إباحة أو غير ذلك "[3].

### ج- *تعريف السنن الإلهية باعتبار التركيب عند المعاصرين.*

تحدثنا فيما سبق عن تعريف السنة باعتبار الإفراد من الناحية اللغوية والاصطلاحية، والمراد بها عند المفسرين والمحدثين، وقد سبقت الإشارة أن الحديث عن السنن الإلهية مُراده ما جاء في تعريفه عند المفسرين الذي يفيد " العادة المألوفة والمثال المتبع في معاملة الأمم في حالة الطاعة وحالة المعصية" وهذا هو المعنى الذي تبنيته في هذا البحث.

وهذا المصطلح باعتبار التركيب لم يظهر إلا عند المتأخرين من العلماء، ونقدم بعض التعاريف التي سلكها المتأخرون.

---

[1] مفاتيح الغيب (ج 9/ 412)

[2] أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، لأبي بكر جابر الجزائري ط، ج381/1 ط مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الثالثة (1418هـ/1997م).

[3] السنة ومكانته في التشريع الإسلامي د محمد السباعي ط دار السلام ص 57، الطبعة الرابعة (1492 هـ/2008م).

عرفها الدكتور عبد الكريم زيدان :" هي الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر بناء على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه، وما يترتب عن ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة"[1].

وعرفها الدكتور رشيد كهوس: " هي أقدار الله وعهوده الثابتة وعهوده الحقة، وكلماته التامات، التي لا تبديل لها ولا تحويل يعتريها ولا تغيير يشملها، ولا تحابي أحدا مؤمنا كان أم كافرا، والتي على مقتضاها يدبر الله هذا الكون"[2].

ومعناها عند الدكتور القرضاوي: " السنن والقوانين التي أقام الله عليها نظام الكون، ونظام المجتمع، وهي سنن وقوانين لها صفة الشمول والعموم"[3].

وعرفها الدكتور رمضان خميس: " هي القانون الضابط المهيمن، والفعل النافذ الحاكم الذي يجري باطراد وثبات وعموم وشمول مرتبا على سلوك البشر"[4]

وعرفها الدكتور حازم زكريا محيي الدين: " هي قوانين الله عز وجل التي أقام عليها بمشـــيئته النافذة، وحكمته البالغة، نظام الكون والإنسان والمجتمع والحضارة، وهذه القوانين تتصف بالعموم والثبات والاطراد"[5]

من خلال هذه التعاريف السابقة نلاحظ أن هناك حضورا أوسع وأشمل لمفهوم السنن الإلهية عند المتأخرين، كما تبرز هذه التعاريف ذلك الارتباط الواضـح لهذا المفهوم القرآني بالكون والتاريخ والمجتمع، وذلك تبعا لكل باحث والرؤية التي يهتدي إليها، فقد ظهر أن هناك من حدد علاقة السنن الإلهية ومجال عملها بالكون المادي والإنسان، وهناك ما انصب اهتمامه على التاريخ أو المجتمع أو الحضارة، أو جمع بين أمرين أو أكثر من هذه المجالات.

1 السنن الإلهية في الأفراد والجماعات والأمم د عبد الكريم زيدان مؤسسة الرسالة ص: 13، الطبعة الأولى (1413هـ/1993م).

2 ( نشأة علم السنن الإلهية ومنهاج تدريسه)، د رشيد كهوس، ص136

3 العلم والعقل في القرآن الكريم ص 281

4 مفهوم السنن الربانية دراسة في ضوء القرآن الكريم ، د رمضان خميس زكي، بدون طبعة، ص 14.

5 مفهوم السنن الإلهية في الفكر الإسلامي السيد محمد رشيد رضا نموذجا ، الدكتور حازم زكرياء محيي الدين، ط، دار النوادر، ص: 31، الطبعة الأولى (1428هـ/2007م)

وبعد تقديم هذه التعاريف، فإن البحث يشملها بهذه المعاني الحضارية والتاريخية وما يتعلق بالمجتمع حالة الطاعة وحالة العصيان، كما أنها تمتاز بالشمول والعموم والاطراد والثبات، مما يتضح أن ما وقع في المجتمعات، هو لا شك واقع في وقتنا ما دامت السنن شاملة بهذا المعنى، وأنها لا تحابي أحدا، فهي تسري على الجميع، وسنن النهوض والركود لا يمكن دراستها إلا من هذه الزاوية، ذلك بأن سنة الله في الأمم عموما، والأمة الإسلامية على وجه الخصوص، كفيلة بدراسة ما كانت عليه الأمم، وكيف عاقبها الله، وسلط عليها جميع الفتن والابتلاءات، كما نصر أخرى لما أطاعت أمر ربها وفق سنن ثابتة لا تتغير ولا تتبدل.

المبحث الثالث: فائدة فقه السنن الإلهية

إن الحديث عن السنن الإلهية في العصر الراهن أصبح من الضرورات الشرعية الملحة، فإن أعظم فائدة تحصل للناظر في سنة الله تعالى والدارس لها، وهي الاعتبار بعد النظر والاعتبار، وذلك أن الله أمر بالسير في الأرض، والنظر في القرون الخالية، وسنن الأمم الماضية، والتدبر في سيرهم واستجلاء أخبارهم وأحوالهم والسؤال عن أسباب صلاح الأمم وفسادها، وتحقق عادة الله عز وجل بالنظر في ترتب العقوبة بعد الواقعة، واستنباط ما حل فيهم من العذاب، وما حل فيهم من النقم ، والاتعاظ بكل ذلك فقال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[1] وتشير الآية الكريمة السير في الأرض على بصيرة وهدى لكي يحصل للناظر سنة الله في الذين خلوا من قبلنا وما حل فيهم من عقاب بسبب حيفهم وجَورهم، قال ابن عطية في معرض تفسيره لهذه الآية ( وهذا الأمر قد يدرك بالإخبار دون السير لأن الإخبار إنما يكون من سار وعاين، إذ هو مما يدرك البصر وعن ذلك ينتقل خبره، فأحالهم الله تعالى إلى الوجه الأكمل)[2] ( والسير في الأرض بعين مفتوحة وقلب يقظ، والوقوف على مصارع الغابرين وآثار الذاهبين، وإيقاظ القلوب من الغفلة التي تسدر فيها فلا تقف، وإذا وقفت لا تحس، وإذا أحست لا تعتبر، وينشأ عن هذه الغفلة غفلة أخرى عن سنن الله الثابتة وقصور عن إدراك الأحداث وربطها بقوانينها الكلية، وهي الميزة التي تميز بها الإنسان المدرك من الحيوان البهيم الذي يعيش حياته منفصلة اللحظات والحالات لا رابطة لها ولا قاعدة تحكمها، والجنس البشري كله وحدة أمام وحدة السنن والنواميس)[3].

[1] آل عمران آية (137)

[2] المحرر الوجيز ابن عطية، تحقيق عبد السلام عبد الشافعي ط دار الكتب العلمية، (ج 1 ص 512).

3 مفهوم السنن الربانية دراسة في ضوء القرآن الكريم ص 18.

" فإذا حصل السير في الأرض حسا ومعنى، فقد حصل الاعتبار بالوقائع والأخبار، وعلم الغائب منها الشاهد، وإذا تحقق ذلك تحصلت العبرة، وأشار الشيخ رشيد رضا في تفسيره المنار أن الحديث عن السنن أولى من الفقه وعلم الكلام لأن فائدته مرجوة وثمرته أكثر إفادة حيث قال: (...ولم يقصر المصنفون من المتقدمين والمتأخرين في شيء من علم الكتاب والسنة كما قصروا في بيان ما هدى إليه القرآن والحديث من سنن الله تعالى في الأمم، والجمع بين النصوص في ذلك والحث على الاعتبار بها، ولو عنوا بذلك بعض عنايتهم بفروع الأحكام وقواعد الأحكام لأفادوا الأمة ما يحفظ به دينها ودنياها وهو ما لا يغني التوسع في دقائق مسائل النجاسة والطهارة، والسلم والإجارة)[1] والقرآن الكريم دعا إلى التدبر في آياته وما أتى به من سنن ربانية لتحصل الفائدة والعبرة لأنه ( ما ترتب من الجزاء على واقعات الغابرين، من عادة الله في أن يترتب على أمثالها في الحاضرين، فيحذِرُ الناظر المعتبر أن يتلبس بأحوال الهالكين فيصيبه من النقم والإهانة ما أصابهم، ويحرص على اتباع سنن الصالحين لينالَه من النعم والكرامة ما نالهم)[2]. قال تعالى آمرا بالاعتبار :﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الالباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يومنون﴾(سورة يوسف آية 111)، قال الإمام القرطبي : ( لقد كان لكم أيها القوم قصصهم عبرة لو اعتبرتم به أي يوسف عليه السلام ... لا يتعذر عليه أن يفعل بمحمد صلى الله عليه وسلم فيخرجه من بين أظهركم، ثم يظهره عليكم، ويمكن له في البلاد، ويُؤَيِّدُه بالجند والرجال، من الاتباع والأصحاب، وإن مرت به الشدائد، وأتت دونه الأيام والليالي، والدهور والأزمان)[3] . وقوله تعالى : ( وتفصيل كل شيء) قال الطاهر ابن عاشور: ( يفيد العموم إلا انه عموم عرفي في دائرة لما في مثله تجيء الأديان والشرائع من إصلاح النفوس، وإكمال الأخلاق، وتقويم المجتمع المدني، وتبيين الحقوق، وما تتوقف عليه الدعوة من استدلال على الوحدانية، وصدق الرسول عليه السلام، وما تأتي في خلال ذلك، في الحقائق العلمية، والدقائق الكونية، ووصف أحوال الأمم، وأسباب خسارتها وفلاحها، والموعظة بآثارها بشواهد التاريخ، وما يتخلل من ذلك من قوانينهم وحضارتهم وصنائعهم، وفي خلال ذلك كله أسرار ونكتٌ من أصول والمعارف)[4].

وكل هذا من أجل أن تسترجع الأمة قوتها وعزتها، وتتعظ بغيرها من الأمم وما حل بها من عذاب، كما أن القرآن الكريم ( يرد المسلمين هنا إلى سنن الله في الأرض، يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور، فهم ليسوا بدعا من الحياة، فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف، والأمور لا تجري جزافا إنما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها وأدركوا

---

[1] تفسير المنار (7/ 499) ط دار المنار( الطبعة سنة 1366 هـ/ 1947 م)

[2] فقه سنن النفس والمجتمع الدكتور ادريس العلمي (ص 2) .

3جامع البيان عن تأويل آي القرآن الطبري (13/ 402)

4 التحرير والتنوير (14/ 253)

مغازيها، تكشف لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث)[1] ( والأمة أي امة لا تستقيم حالها إلا إذا فهمت هذا النظام الإلهي وهذه السنن، وانسجمت حياتها وتكيفت مع هذا النظام وهذه السنن، ومتى أعرضت عنها وخالفتها جهلا أو تهاونا أو عنادا واستكبارا فإنها حتما ستواجه مصير أمثالها، وتلاقي جزاءها في الدنيا دون تخلف أو محاباة)[2].

المطلب الرابع: الحاجة إلى العناية بفقه الحديث في باب السنن الإلهية

إن السنة النبوية تعد المصدر الثاني بعد القرآن الكريم، والسنة تدور مع القرآن على ثلاث مراتب، إما أن تدعم ما جاء في القرآن الكريم وتأكيده، وإما أن تخصص وتقيد حكما عاما، أو تضيف ما سكت عنه القرآن الكريم، يقول الدكتور مصطفى السباعي" كان الصحابة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفيدون أحكام الشرع من القرآن الكريم الذي يتلقونه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكثيرا ما كانت تنزل آيات القرآن مجملة غير مفصلة، أو مطلقة غير مقيدة ، كالأمر بالصلاة، جاء مجملا لم يبين في القرآن عدد ركعاتها ولا هيئتها ولا أوقاتها، وكالأمر بالزكاة، جاء مطلقا لم يقيد بالحد الأدنى الذي تجب فيه الزكاة، ولم يبين مقاديرها ولا شروطها، وكذلك كثير من الأحكام التي لا يمكن تنفيذها دون الوقوف على شرح ما يتصل من شروط وأركان ومفسدات، فكان لابد لهم من الرجوع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعرفة الأحكام معرفة تفصيلية واضحة"[3] والسنة النبوية بما هي ترجمة علمية شاملة للقرآن في واقع الحياة تضع أمامنا تجربة نموذجية فذة في استيعاب سنة التدافع والتجديد في حركة القدوة والدعوة والبناء والمواجهة، التي غير من خلالها المجتمع الجاهلي التقليدي، وبنى مكانه مجتمعا إسلاميا عالميا كونيا إسلاميا عابدا لله "[4].

وإذا كان الأمر كذلك ينبغي الاعتناء بها ودراستها دراسة تتماشى مع ما أتى به القرآن من سنن إلهية ثابتة، فينبغي التنبه إلى أن العناية في باب السنة النبوية واستخراج ما حوت عليه من أحاديث تشير إلى فقه السنن الإلهية في مجالات متعددة أصبح ضرورة ملحة، لأن غالب البحوث انصبت على القرآن الكريم ووقع قصور في هذا الجانب، مع العلم أن السنة النبوية تزخر بالأحاديث التي أرشدت البشرية إلى سنن الله تعالى في المجتمعات، وفي الحكم، والإمامة، والخلافة، إلى غير ذلك، وتعتبر أحاديث الفتن والملاحم في باب السنة النبوية أحاديث سننية ينبغي دراستها وفق سنن الله الثابتة لأن دراستها

1 السنن الإلهية وأثرها في فهم الواقع، أبو مريم محمد الجريتلي، بتاريخ 24/12/2011، شبكة الألوكة ص، 4

2 سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم د حسن بن صالح الحميد ط دار الهدي النبوي والفضيلة ص 6،الطبعة الثانية، (1432هـ/2011م).

3 السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي د مصطفى السباعي (ص 59)ط دار السلام،

4 إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية د الطيب برغوث (ص 26) ط روافد 2013

وفهمها تتضح معاني السنة على أساس أن تكون هذه الدراسة توازي القرآن الكريم، من حيث التماشي مع المعطيات، وإذا كانت السنة وحيا فلا شك أن ما أتى في القرآن من سنن ثابتة وحقائق علمية رصينة، فإن السنة النبوية لا تعزب عن ما جاء في كتاب الله. وهكذا فإن سنة النبي صلى الله عليه وسلم " قد وقعت العناية بها من العلماء حفظا بتدوينها وكتابتها وصيانة لها من الدس والتحريف بوضع قواعد الرواية وأصول قبول الحديث ورده بمنهج الجرح والتعديل، وفقها من الناحية التشريعية، وبيان أحاديث الأحكام، إلا أن الجانب الفقه الاجتماعي والتاريخي والكشف عن سنن الله في خلقه ظل شبه غائب في مؤلفات شراح السنة النبوية سوى إشارات وعبارات قليلة فلا تكاد تظفر منها بشيء ذي بال في هذا الميدان، وقد يعتذر لهم بأن بحث السنن لم فكرة تشغلهم في تلك الأزمان بمثل ما هي ملحة في هذا الزمان"[1].

ولكي تتحقق دراسة السنة من منظور سنني ينبغي أن نكون واعين بطبيعة المنهج النبوي: " وخصائصه وثوابته وتطبيقاته في الفهم والقدوة والدعوة والبناء، والمواجهة، وهذا شرط أساسي، لنقل العلاقة بين القرآن والسنة والسيرة النبوية من مستواها التاريخي النقلي الوصفي التجريدي المثالي التنافري أحيانا، إلى مستواها التحليلي التركيبي السنني المقاصدي الحيوي التكاملي الذي يجعل المسلم ينفتح على شروط ومستلزمات نظرية التدافع والتجديد"[2].

ودراسة السنة النبوية بهذا الشكل تقتضي على الباحث اليقظ أن يكون على وعي بفهمه للأحاديث وقدرته على الاستنباط من أجل أن يستقي السنن الإلهية من الأحاديث النبوية يقول الدكتور القرضاوي: " وهذا يحتاج إلى فقه عميق، ونظر دقيق، ودراسة مستوعبة للنصوص، وإدراك بصير لمقاصد الشريعة وحقيقة الدين، مع شجاعة أدبية، وقوة نفسية للصدع بالحق، وإن خالف ما ألفوه الناس وتوارثوه، وليس هذا بالشيء الهين، فقد كلف هذا شيخ الإسلام ابن تيمية معاداة الكثيرين من علماء عصره"[3].

إن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرته ونمط حياته وحياة الصدر الأول من أصحابه " لتمثل التجسيد العلمي الواقعي لذلك المنهج الفكري، وحينما يتعامل العقل المسلم المعاصر مع الكتاب المجيد... وحين يضيف إلى ذلك فهما للسنة بتأمل وإدراك وتدبر معاصر سليم، فإن الأزمة العقيلة الكبرى تصبح في متناوله، لمعرفة حركة الحياة والإنسان الذي ينسجم مع دورة الكون والوجود[4].

---

[1] فقه سنن النفس والمجتمع د إدريس العلمي (ص7).
[2] إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية د الطيب برغوث (ص23)
3 كيف نتعامل مع السنة النبوية د يوسف القرضاوي (ص 145) ط دار الشروق الأولى (1421هـ/2000).
4 نفس المصدر (ص 19) (بتصرف)

المبحث الرابع: تطبيقات ونماذج من فقه السنة النبوية في بيان السنن الإلهية.

تعد الأحاديث النبوية من المجالات التي تستخلص منها السنن الإلهية، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أشار إلى بعض الأحاديث التي فيها معنى السنن الإلهية في جميع مناحي الحياة، بل نجد في بعض الأحاديث دلالة واضحة على هذا المعنى، فيها من الإشارات واللطائف النفيسة التي تربط الأسباب بمسبباتها " والرسول صلى الله عليه وسلم أكّد وجوب رعاية السنن بقوله وعمله وتقريره، كما هو واضح في سنته وسيرته"[1].

يقول الدكتور رشيد كهوس في هذا المقام: " لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة وقدوة في فهمه للسنن الإلهية وتطبيقها وكانت كل تصرفاته تطبيقا وامتثالا للسنن الإلهية، كما كان صلى الله عليه وسلم يرشد أصحابه إلى سنن الله في من سبقهم بالإيمان من اتباع الأنبياء والمرسلين، ليحذوا حذوهم ويقتفوا آثارهم، ويحذرهم من السير على سنن المكذبين والظالمين والمنكرين، ويبين أسباب مرض الأمم السابقة وهلاكها وحلول عقاب الله فيها، ويرشدهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم في الدنيا والآخرة إذا ساروا على سكة السنن الإلهية"[2].

بل في عصر الرسالة كان الناس يعايشون السُّنَّة بكل أبعادها الخُلقية والتربوية والاجتماعية، واستمر الصحابة من بعده على هذه المحجة البيضاء في سياستهم وشؤونهم السياسية، وتدبير أمورهم وفق السنن الإلهية التي لا تتبدل ولا تتحول، ويظهر ذلك جليا في فترات حكمهم التي كان مثالا يحتذى به الأمم في سياسة رعيتها، وتدبير شؤونها في أمر الدين والدنيا. وهكذا نجد أن المسلمين " في العصور الأولى رعوا هذه السنن، واحترموا شبكة الأسباب والمسببات، فأقاموا حضارة مُثلى، نشأت في رحابها علوم كونية ورياضية، امتدت جذوعها، وبسقت فروعها وأتت أكلها بإذن ربها"[3].

وكان من الطبيعي أن نجد في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم طائفة كبيرة من الأقوال التي أشار فيها إلى سنن الله العاملة في المجتمعات البشرية وما حل فيها من نكوص وركود أو إشارات مستقبلة وذلك عبر صياغات أقرب ما تكون إلى صياغة المعادلات الرياضية، أو القوانين الاجتماعية الحديثة، ومن بين تلك الأحاديث التي يمكن أن نسميها أحاديث سننية، كأحاديث الفتن، والظلم، والفساد، والنهي عن الاختلاف المذموم، وتغيير الأنفس، وغيرها كثير، وسأقتصر على بعض منها لبيان وكشف حقيقة السنن الإلهية من خلال هذه الأحاديث.

---

1 العقل والعلم وفي القرآن الكريم د القرضاوي ص 283

2نشأة علم السنن الإلهية ومنهاج تدريسه د رشيد كهوس مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية (ص 157)

3 العقل والعلم في القرآن الكريم ص184

نماذج من السنة النبوية في بيان السنن الإلهية

- سنة الظلم وعاقبته؛

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه"[1]

" اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فان الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم"[2]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" أيها الناس إنما اهلك من كان قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد"[3]

" ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه ألا أوتوا الجدل"[4]

تشير هذه الأحاديث في مجملها على عاقبة الظلم وما يحل بالبشرية من عقاب بسبب اقتراف هذه المظلمة الوخيمة التي تخالف سنن الله في الحياة، والأمة التي لا تهتدي إلى الحق وتسير وفق سنن ثابتة من تحقيق الحق ودحض الباطل، أوشك الله أن ينزل بها إلى الذل والهوان، بل لا تسري الحياة على النهج المستقيم وعلى سنن إلهية ثابتة، إلا إذا ارتفع الظلم سواء تعلق هذا المعنى للظلم بالنفس أو بالأشخاص أو بالله تبارك وتعالى، وعلى الأمة الإسلامية الآن أن تقرأ هذه الأحاديث التي تشير إلى حقيقة السنن والأخذ بها لتكون أمة حقا، " ومن صور الظلم الشائعة الذائعة بسبب الشح والبخل، وإيثار الدنيا على الآخرة: " أكل أموال الناس بالباطل، وذلك عن طريق الجحود والمماطلة، أو الغش والمخادعة، أو عن طريق الرشوة، أو الربا، أو أكل مال اليتيم، أو عن طريق التدليس، كمن يأخذ أرض غيره أو بعضها بأدنى الحيل .....وفي غمرة هذا الظلم والجشع، واللهاث وراء حطام الدنيا الفانية ينسى هؤلاء عذاب الآخرة، فضلا عن العقوبة المعجلة في هذه الدنيا"[5].

1 سنن الترمذي كتاب الفتن (ص 634)، تحقيق، د.صدقي جميل العطار ط دار الفكر (2005 م)

[2] المنهاج في شرح مسلم بن الحجاج كتاب البر والصلة والأدب (باب تحريم الظلم المسلم وخذله واحتقاره) (ص 1537)

3 فتح الباري بشرح صحيح البخاري الحافظ بن حجر كتاب الحدود (باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع) (رقم الحديث 6887) (ج 88/12) ( ط دار البيان للتراث)

4 سنن الترمذي ( كتاب تفسير القرآن سورة الزخرف) (ص 841)

[5] مجلة البيان (العدد 197/ هـ2004/1425 م) عنوان المقال حقيقة الظلم د عبد العزيز بن فوزان بن صالح الفوزان

إذا كان هذا يتعلق بالأفراد، فإن هناك تجبر الحكام وظلمها على الرعية، وهذا عده ابن خلدون سبب في إفساد الدولة والعمران ونوه ابن خلدون إلى هذا المعنى بقوله: " إن من أشد الظلمات، وأعظمها في إفساد العمران والدولة التسلط على أموال الناس بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان، ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب والإكراه في البيع والشراء"[1].

ويتبين مما سبق أن الظلم " ليس سببا من أسباب الهزيمة والسقوط فحسب، بل هو سبب من أسباب هلاك الأمم وسقوطها، وانهيار الحضارات وتغير الأحوال"[2]

- سنة الفساد

قال النبي صلى الله عليه وسلم أيضا " ما ظهر الغلو في قوم قط إلا ألقي في قلوبهم الرعب، ولا فشا الزنا في قوم قط إلا كثر فيهم الموت، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قطع عنه م الرزق، ولا حكم قوم بغير الحق إلا فشا فيهم الدم، ولا ختر قوم بالعهد إلا سلط الله عليهم العدو"[3]

وسألت السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم " أنهلك وفينا الصالحون؟ قال (نعم إذا كثر الخبث)[4].

فحين يكثر الفسوق والفجور، ويغلب المنكر على المعروف، يهلك الله البر والفاجر بما اكتسبوا من الذنوب والمعاصي، على ما قضى الله من سنته من ترتيب الجزاء على فعل السيئات حين قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴾[5] وهذه الآية عامة في البر والفاجر والمؤمن والكفار كل يجازى بعمله السيئ.

وأرشد الدكتور الصلابي إلى دراسة السنة واستخراج سنن الله الثابتة منها ، كما أعطى مثالا لذلك حيث قال: " وسنن الله تتضح بالدراسة فيما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمطالعة في سننه، فقد كان يقتنص الفرص والأحداث ليدل أصحابه على شيء من السنن، ومن ذلك أن ناقته صلى الله عليه وسلم (العضباء) كانت لا تُسبق، فحدث

[1] مقدمة ابن خلدون تحقيق حامد احمد الطاهر، الطبعة الأولى (1425 هـ/ 2004 م) ط، دار الفجر للتراث، ص65

2 ، سقوط الأندلس من منظور السنن الإلهية، الدكتور رشيد كهوس، مجلة الإبصار العدد الثاني، ص148.

3 رواه مالك الموطأ (كتاب الجهاد)( باب ما جاء في الغلول) (ج 2/ ص457)

[4] فتح الباري (كتاب الأنبياء)(باب قصة يأجوج ومأجوج) (ج 381/6). المؤلف: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وتصحيح تجاربه، محب الدين الخطيب، الناشر: المكتبة السلفية – مصر، الطبعة السلفية الأولى 1390/1380 هـ

[5] سورة النساء آية 122

مرة أنسبقها أعرابي على قعود له، فشق ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهم: كاشفا عن سنة من سنن الله ( حق على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه)[1] "[2] والنبي صلى الله عليه وسلم أشار أيضا إلى السنن الاجتماعية والطبيعية يقول الدكتور يوسف القرضاوي" وقد أنكر النبي صلى الله عليه وسلم كل ما لا يقوم على السنن الطبيعية والاجتماعية، في أمور الحياة والرزق والطب والتداوي والعلاقات المختلفة، ومن هنا أكد تحريم السحر وجعله من الكبائر، وأنكر كذلك (التنجيم) الذي يقوم على التنبؤ بالغيبيات والمستقبليات، وشدد النكير على اتخاذ التمائم الرّقى الجاهلية، وأمر بمراعاة الأسباب في التداوي والعلاج"[3]

سنة الاختلاف المذموم وعاقبته.

والأحاديث في السنة النبوية متواردة في هذا المعنى، وحذر النبي صلى الله عليه وسلم من وطأة الاختلاف، وبيان سنة سوء عاقبته، وأنه سبب في هلاك الأمم الماضية قال صلى الله عليه وسلم " فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا " وفي رواية " فأهلكوا"[4] وعن سعد بن بردة عن أبيه عن جده " أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث معاذاً وأبى الأشعري إلى اليمن فقال: يسرا ولا تعسرا، بشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا ولا تختلفا"[5]

إن هذا الاختلاف هو الاختلاف المذموم الذي يؤدي بهلاك الأمة والتنازع والشقاق يقول الدكتور رشيد كهوس: " إن الخلاف والتنازع لا يعطي ثمارا ولا يحقق نصرا ولا يرهب عدوا ، فهو مرض خطير عاقبته سيئة، ونتائجه وخيمة، ولهذا حذرنا الله تعالى تبارك وتعالى من هذا الجرثوم الخبيث، وقدم الأمر بطاعة الله ورسوله على النهي عنه، مما يجعلنا نلمح أن العاصم من هذا المرض الخطير هو الطاعة لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم "[6]ومن أمثلته في السنة النبوية وما وقع في غزوة أحد كما في حديث البراء قال: " جعل النبي صلى الله عليه وسلم الرَّجَالَةَ يوم أحد، وكانوا خمسين رجلا عبد الله بن جبير فقال: إن رأيتمونا تخْطُفُنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وان رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم فهزموهم قال: فأنا والله رأيت النساء يشتددن قد بدت خلاخِلُهُنّ وَأَسْوُقُهُنَّ رافعات ثيابهن فقال أصحاب عبد الله بن جبير الغنيمة أيْ قومِ الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنظرون فقال عبد الله بن جبير:

1 فتح الباري (كتاب الجهاد والسير) (باب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم) (ج 86/6)
2 صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي د الصلابي ط دار الإيمان ودار القيمة (ج300/2) الطبعة الأولى، (1426هـ/2005م).
3 العقل والعلم في القرآن الكريم ص 284
4 فتح الباري باب الجهاد (باب الحراسة في الغزو )( ج 6ص97) (رقم الحديث 2890)
5 فتح الباري باب الجهاد (باب الحراسة في الغزو )( ج 6ص97) (رقم الحديث 2887)
6 سقوط الأندلس من منظور السنن الإلهية ص5.

أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالو: والله لنأْتينَّ الناس فلنُصيبَنَّ من الغنيمة فلما أتوهم صُرِفَتْ وجوههم فأقبلوا منهزمين فذاك إذ يدعوهم الرسول في أخراهم"[1] وكان يوم أحد من أصعب اللحظات مرت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب عدم امتثال الصحابة لرسول الله ووقعت الهزيمة النفسية التي أصابت بعض الصحابة " وكادت تؤدي إلى زلزلة يقين بعضهم، حيث تساءل بعض الناس كيف تحدث لهم الهزيمة الكبرى وهم يدافعون عن الإيمان والحق؟ وعدوهم يدافع عن الشرك وينتصر له؟ لم يتمكنوا من استيعاب الموقف ودخلوا في بلبلة خطيرة، فجاء القرآن يراجع الموقف من أساسه، ويصحح الفهم، ويعمق الوعي السنني المتكامل في المجتمع، ويحرره من الوهم واللامنهج ، بوضع الحدث في إطاره السنني الصحيح الواضح البسيط، فبين لهم أن ما حدث نتيجة منطقية لمخالفتهم لبعض سنن المواجهة، فكان من الطبيعي جدا أن تنطبق عليهم سنن الله في الخلق، وتلحق بهم الهزيمة"[2]

وهذا نموذج من نماذج السنة في حقيقة التنازع والاختلاف، وثبت أن الفشل والتنازع سنة من سنن الهزيمة وحلول العقاب

ويدخل في هذا الباب أيضا كثرة السؤال: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا فقال رجل: أفي كل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم ثم قال: ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فاتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه"[3]

قال الحافظ بن حجر في معنى لهذا الحديث: " والمراد بهذا ترك السؤال عن شيء لم يقع خشية أن ينزل به وجوبه أو تحريمه، وعن كثرة السؤال لما فيه غالبا من العنت، وخشية أن تقع الإجابة بأمر يستثقل، فقد يؤدي لترك الامتثال فتقع المخالفة"[4]

وقد بينت هذه الأحاديث وما يدخل في معناها أن الظلم والفساد والاختلاف، سبب في هلاك الافراد والأمم والجماعات، فسنن الله جارية ومطردة لا تحابي أحدا، ولهذا حذر النبي صلى الله عليه وسلم في احاديث كثيرة عن عاقبة الظلم والفساد، وبين أن ما يصيب الأفراد والجماعات، سببها هو اقتراف هذه الموبقات.

---

[1] فتح الباري ( باب ما يكره في التنازع والاختلاف) (كتاب المغازي والسير)( ج144/6)

2 إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية ص 123 د الطيب برغوث

[3] فتح الباري كتاب (الاعتصام بالكتاب والسنة )(باب قول النبي صلى الله عليه وسلم (بعثت بجوامع الكلِم) )(ج275/13)

[4] المصدر نفسه ص 260

وبهذا يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قام بواجبه في توضيح السنن الإلهية " وقدم لعلماء المسلمين من بعده النموذج المحتذى في الجد والاجتهاد بحثا عن سنن الله تعالى في المجتمع والتاريخ التي لا غنى عن فهمها واستيعابها، لتمكين الأمة الإسلامية من البقاء على مسرح التاريخ فاعلة قائمة بواجبها الحضاري في الشهادة على العالم"[1].

**خاتمة:**

إن العناية بدراسة السنن الإلهية في السنة النبوية تمثل وسيلة مهمة لفهم الهدي النبوي فهما أعمق، وربط المعرفة الشرعية بالواقع العملي، بما يسهم في بناء وعي إيماني واجتماعي يجعل المسلم أكثر إدراكا لأسباب النهوض وأسباب الانحطاط، وأكثر قدرة على الاستفادة من توجيهات السنة في إصلاح الفرد والمجتمع.

ومن خلال النماذج التي تناولها البحث في السنة النبوية، ظهر بالملوس أن السنة لم تقتصر على بيان الأحكام التعبدية، بل أرشدت كذلك الى سنن اجتماعية وأخلاقية وحضارية، ومن ذلك ما يتعلق بالفساد والظلم، وما يترتب عليها من عواقب وخيمة، وما يتعلق بكثرة السؤال والتكلف في أمور الدين، وما قد ينشأ عن الاختلاف المذموم من فرقة ونزاع وذهاب القوة والوحدة، وتعد هذه النماذج كاشفة عن منهج نبوي متكامل في معالجة أسباب الانحراف والخلل، والتنبيه إلى عواقبها قبل انتشارها.

[1] السنن الإلهية في الفكر الإسلامي السيد محمد رشيد رضا نموذجا (ص 53)

**قائمة المصادروالمراجع:**


- مختار الصحاح، المؤلف، زين الدين أبو عبد الله محمد بن ابي بكر عبد القادر الحنفي الرازي، تحقيق يوسف الشيخ محمد، الناشر، المكتبة العصرية –الدار النموذجية بيروت – صيدا، الطبعة الخامسة (1420 ه/1999م).
- معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون ط دار الفكر. (1399ه/1979م).
- مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين خطيب الري، الناشر دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثالثة 1420 هـ.
- تاج العروس الزبيدي، تحقيق: جماعة من المختصين، من إصدارات، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، أعوام النشر، (1385-1422 ه) (1965-2001م).
- المعجم الوسيط، ط الشروق الدولية، الطبعة الرابعة 1425ه/2004.
- مفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق، صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق الطبعة الأولى 1412 هـ.
- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء أيوب بن موسى الحُسَيْني للكفوي، قابله على نسخة خطية وأعده للطبع ووضع فهاريسه، د.عدنان درويش/ محمَّد المصري، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، (1419ه/1998م).
- جامع الأحكام القرطبي ، تحقيق أحمد البردوني، وإبراهيم أفطيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية: 1384 ه/1964م.
- التوقيف على مهمات التعاريف- محمد عبد الرؤوف المناوي: دار الفكر المعاصر, دمشق، الطبعة الأولى، 1410هـ.
- فقه سنن النفس والمجتمع د ادريس العلمي، (رسالة دكتوراة)، مرقون بمكتبة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول بوجدة.

- (نشأة علم السنن الإلهية ومنهاج تدريسه)، الدكتور رشيد كهوس، بحث منشور، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية (مجلة نصف سنوية محكمة) تصدر عن كلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة قطر المجلد الحادي والثلاثين العدد الثاني (ط 1435/2013).
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن الإمام الطبري، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى القاهرة (1422 هـ/ 2001م).
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للعلامة جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق الشيخ احمد عادل عبد الموجود والشيخ علي محمد عوض، مكتبة العبيكة، ط (1418هـ/1998م).
- التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، ط، دار التونسية للنشر والتوزيع، تاريخ النشر (1984).
- في رحاب التفسير عبد الحميد كشك، المكتبة المصرية الحديثة، تاريخ النشر(1987م).
- العلم والعقل في القرآن الكريم، مكتبة وهبة الطبعة الأولى، (1416 هـ/1996 م).
- موطأ الإمام مالك، تحقيق فؤاد عبد الباقي، طبعة: دار إحياء التراث العربي، ( 1402 هـ/1985).
- النهاية في غريب الحديث والأثر، أشرف عليه وقدمه علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي الأثري، ط دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى / جمادى الأولى 1421 هـ
- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير وبهامشه نهر الخير على ايسر التفاسير، لأبي بكر جابر الجزائري، ط مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الثالثة (1418 هـ/1997م).
- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي د محمد السباعي ط دار السلام، الطبعة الرابعة (1492 هـ/2008م).
- السنن الإلهية في الأفراد والجماعات والأمم، د عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى (1413هـ/1993م).
- مفهوم السنن الربانية دراسة في ضوء القرآن الكريم، د رمضان خميس زكي (بدون تاريخ النشر).
- مفهوم السنن الإلهية في الفكر الإسلامي السيد محمد رشيد رضا نموذجا، تأليف الدكتور حازم زكرياء محيي الدين، ط، دار النوادر، الطبعة الأولى ( 1428 هـ/ 2007م)

- المحرر الوجيز ابن عطية، تحقيق عبد السلام عبد الشافعي ط دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (1422هـ)
- تفسير المنار، ط دار المنار (الطبعة الثانية: سنة 1366 هـ/ 1947 م).
- السنن الإلهية وأثرها في فهم الواقع، الكاتب، أبو مريم محمد الجريتلي، بتاريخ 24/12/2011 شبكة الألوكة.
- سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم، د حسن بن صالح الحميد ط دار الهدي النبوي والفضيلة. (الطبعة الثانية (2011/1432)
- سنن الترمذي، تحقيق د. صدقي جميل العطار، ط دار الفكر (2005 م).
- المنهاج في شرح مسلم بن الحجاج، ط بيت الأفكار الدولية. تحقيق الشيخ أبو صهيب الكرمي (ط 1421 هـ/2000م).
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، المؤلف أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق، محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وتصحيح تجاربه: محب الدين الخطيب، الناشر: مكتبة السلفية مصر، الطبعة السلفية الأولى (1380 – 1390).
- مجلة البيان (العدد 197/ هـ1425/2004 م) عنوان المقال حقيقة الظلم د عبد العزيز بن فوزان بن صالح الفوزان.
- مقدمة ابن خلدون، تحقيق حامد أحمد الطاهر، ط الأولى (1425 هـ/ 2004 م)، ط، دار الفجر للتراث.
- سقوط الأندلس، من منظور السنن الإلهية، الدكتور رشيد كهوس، مجلة الإبصار العدد الثاني. دجنبر، سنة 1436 هـ/2015م
- صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي، د الصلابي، ط دار الإيمان ودار القيمة. الطبعة الأولى 1426هـ/2005م.
- إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية د الطيب برغوث، ط روافد، الطبعة الأولى – (دولة الكويت يوليوز 2007م/ جمادى الثانية 1428 هـ).
- كيف نتعامل مع السنة النبوية، د يوسف القرضاوي، ط دار الشروق الأولى (1421هـ/2000).